

مجلة المجتمع العلمي العراقي

المجلد الرابع والعشرون



٢٤

مطبعة المجتمع العلمي العراقي

١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م

طرس حنين

الدكتور عبد الرحمن بن محمد العبد

بعض الشخصيات من خوارق العادات لايتأتى لنا تسببها بما نملك من وسائل المعرفة ولا نشهد وجودها الا في فترات جد متباعدات .

وطه حسين ظاهرة خارقة شهدت مثلها الامة العربية مرة قبل الف عام في ذات (ابي العلاء المعري) ومرة بعد الف عام من ذلك في شخص الدكتور طه حسين ولا نعلم أن شهدت الامة العربية قبل ابي العلاء المعري نظيراً له في تاريخها المترامي البعيد فهل ستشهد الامة العربية بعد (طه حسين) ندأ له ولو في مستقبلها المترامي البعيد .

ولربما ذهب الظن الى اني اغلي بالرجل او احاول ان انعته بالكمال الذي لا يشوبه نقص فذلك ابعده شي عن قصدي ولا هو مما يؤديه قولي : بانه ظاهرة خارقة للعادة .
ويحسن مقدما ان اسجل انه كغيره من الشخصيات الادبية مظنة للخطأ والصواب بل لعل خطأه كفاء صوابه ، ولكن ذلك لا يمنع ان يكون حتى لخطئه ميزة يفضل بها صواب غيره ، وشأن يؤثر به على كثير من الصواب .

ذلك ان بعض الخطأ يصيب من احتفاء الناس اضعاف ما يناله صواب المصيبين فليس محض الصواب جالباً لاحتفاء الناس واحتفالهم . ولا محض الخطأ باعثاً على

زهد الناس وازدراؤهم . انما يدور احتفاء الناس وعنايتهم مدار ما يثيره اي من الخطأ والصواب في نفوسهم ، فقد يثير الخطأ اضعاف ما يثيره الصواب ، وذلك حين يكون الخطأ يحمل سمات الصواب او يبدو الخطأ وكأنه انتزع واستخلص من اعراف ومسلّمات ساد الرأي على انها من الصواب .

وقد يعجز كثير من الصواب ان يثير في احدنا انتباهاً او فضولاً وذلك حين يكون الصواب من البدائنه المسلّمه والمدر كات التي لا يختلف عليها اثنان ، كبعض الحكم والمواعظ المكرورة او يكون الصواب معروضاً عرضاً مهلهلاً وباسلوب لاجرة فيه ولا ظاهرة اعتداد

وكان طه حسين من اولئك الذين استثاروا الالسنه ، وشغلوا النفوس والعقول في جلّ ما نفى واثبت ، وصحح وأبطل ، ولم يذهب شيء مما ذهب اليه بالحق او بالباطل جزافاً من غير نفع وعبثاً من غير جدوى ، بل كان جلّ ما جاء خيراً ونفعاً ومثار خير ونفع .

انتفع به من أنكره ، وانتفع به من صدقه والتقى المنكر والمصدق على حقيقة متسام عليها من تقدير الرجل واستشعار خطره ، والشكر لسعيه ، والنظر اليه ظاهرة خارقة بين الظواهر .

ولقد آثرت ان تكون كلمتي فيه تسجيلاً لانطباعات ليس مما دوّنه تاريخه فتأريخ الرجل مقروء مسطور ، وان تكون منتزعة مما بين السطور ومن وراء الكلمات فذلك ما لعله أوفى تعريفاً بشخصيته وبمكانه في جيله ، وأثره فيه .

هناك انطباعات عن أثر الرجل في الحياة الادبية المعاصرة لم يشر كه فيها احد بالصفة التي كانت له ، منها .

١- ان تاريخ الادب العربي (علماً من علوم اللغة العربية) مدين له فيما يلقي

من عناية الجامعات فيما افسحت له من ساعات تدريس ومادة دراسة ، ثم فيما انتهت اليه الدراسات من نضج ، او فيما اعتمدت من منهج .

فمن الناحية الاولى ، يأخذ تاريخ الادب العربي في مناهج الدراسات العربية من الوقت والرعاية اكثر مما يأخذه اي من فروعها ، بحيث لو قرن ما يأخذه تاريخ الادب بما يأخذه النحو او الصرف او البلاغة ، او غيرها من علوم العربية لكان حظ تاريخ الادب اوفر وأعلى نصيباً .

وما كان الامر كذلك في تقديري لولا حماسة هذا الرجل لهذا الفرع من علوم العربية والدعوة له والتبريز به ، واقترانه بشخصه اقترانا رفع من رصيده وجعله اظهر ما امتازت به الجامعة المصرية من فروع علوم اللغة : وسرت عدوى ذلك من الجامعة المصرية الى الجامعات العربية في مختلف الاقطار .

ومن الناحية الثانية فإن ما اختطه طه حسين من منهج لدراسة تاريخ الادب العربي وبخاصة منهجه في دراسة تاريخ الادب الجاهلي كان ذا أثر بالغ في بعث الادب الجاهلي وفي استجلاء خصائصه وفي لفت نظر الناس الى ما يلابس تاريخه من ظنون . ويعتور نصوصه من شكوك في واقعه او صحة نسبته او في الاسباب والعوامل أدت الى خلقه او اختلاقه . وما كان ذلك يتم وعلى الصورة التي تمّ عليها لولا منهج طه حسين واسلوبه في البحث .

ويشهد على أثره الشخصي في ذلك ان العصور التي يؤثرها (طه حسين) بدراسة من عنده لم تؤثر بدراسة قيمة من غيره . وأن أقوم تلك الدراسات الادبية المعاصرة كانت تلك التي اتصلت بدراساته ، بسبب وآخر ، اثباتاً أو نقضاً ، تأييداً أو تهويناً ، ومن جماع ذلك حفلت المكتبة العربية بمصادر للادب الجاهلي لم تحفل بمثلها بقية العصور ، واستجلت خفايا هذا الادب على وجه لم يستجل بها غيره .

وكذلك يمكن ان يقال عن أثره في الدراسات غير الجاهلية التي عني بها أمثال
دراساته لبعض ادباء العصر الاموي في حديث الاربعاء ، أو دراسته للمتنبى أو ابي
العلاء المعري .

ومن معطيات الرجل انه خلع من شخصيته على شخصية مؤرخي الادب المعاصرين
جلباً من الاعتداد والخيلاء ، بحيث سرى من صنيعه الى صنيعهم اجترأ على نقد
النصوص والتحكم فيها ، وهو أمر لم يتهاى مثله لدراسة فروع العربية الاخرى .
ومما تميز به بين جمهرة الادباء انه جمع الى شخصية الاديب المرموق شخصية
الاديب المهيب فلست اعرف شخصية ادبية معاصرة لها من حب العامة أو تهيب
الخاصة ما (لطف حسين) ، فهو الى ما يتمتع به من شخصية محببة الى جماهير
المتأدين يتمتع بهيبة خاصة بين خاصة المثقفين والمتأدين . يشهد ذلك كل من
خالط اعلام الادب واساطين الثقافة من جيله ولاحظ ما يلقون به الرجل حين
يحضرون مجلسه ، وما يستشعرون من خطره حين لا يكون حاضر المجلس .

ولقد اعرف بين اولئك من لا يعجبه العجب ولا يثنيه حرمة أدب حتى اذا حدث
طه ، وذكر رأيه تظامن وتداخل وترجل وتضاءل ، وادركت ان جبلاً من التناول
والادراء انثال حتى ساوى الارض ولصق بالقاع . كذلك لا اعرف بين كل من
عرفت من اساطين الادب من لم يرقب راى (طه) في بحثه أو مقاله أو كتابه
ومن لا يعتر بالكلمة يقولها عنه - استطراداً في مقالة او قصداً في حديث .

وكان مجلس طه حيث يكون مجلسه ، في بيته ، في الجامعة ، في المجمع ، في
اللجان الثقافية المختلفة ، تظله هالة من شخصيته ، فلا يرتفع صوت على صوته
ولا ينتظر رأى بعد رأيه . وانما الحوار معه وفي مجلسه مراجعة بأدب ، واصغاء بقناعة .
وشيء عن جيل (طه) في مصر يحسن ان يذكر بل لا بد ان يستعرض ويستجلى ،
وبغير ذلك لا يتم تحديد مركز طه الادبي في جيله ، ولا مقام جيله بين الاجيال

العربية التي سبقتة وبهذا الاستعراض نعرف بالضبط مكانة جيله بين الاجيال ومكانته في جيله .

الجيل العربي المصري ، الذي ولد في نهايات القرن التاسع عشر أو في ثلاثين القرن العشرين وعاش شبابه و كهولته وشيخوخته خلال سبعين عاماً من عمر هذا القرن جيل فذا نادر بين الاجيال العربية ، بحيث لو أخذنا أى فترة من فترات تاريخنا الثقافي توازيها عدد سنين ، وقرناها بهذه الفترة لأربت هذه عليها ثقافة وادباً وعلماً . ولو جاز ان نجد له شبيهاً في جيل القرن الرابع الهجري وهو ما يصح ان يخطر في الذهن ، فان ملاحظة مهمة ودقيقة يحسن ان تلاحظ هي ان القرن الرابع الهجري جاء في اعقاب قرون ثلاثة من نهضة شاملة تمت وتطورت خلالها المعارف والعلوم وكان القرن الرابع زبدة ذلك المخاض وخلاصته ، على حين نبغ جيل هذا القرن في اعقاب خمول عربي لعدة قرون كادت العربية فيها ان تنسى خصائصها ومزاياها وفي هذا القرن برز عدد كبير من الكتاب وعدد مثلهم من الشعراء ، ونظيرهم في التاريخ والفقهاء والقانون وفي علوم الدين والتمثيل والغناء والنحت .

في هذا الجيل ظهرت اساليب بيانية تربو في عدد ها على جملة اساليب البيان العربي في مختلف عصوره فهناك اسلوب يتميز لكل من طه حسين وعباس محمود العقاد وابراهيم المازني والمنفلوطي ، واحمد حسن الزيات ، ومصطفى الرافعي واحمد امين ، وزكي مبارك وغيرهم وقل مثل ذلك عن اعلام كثيرين في مختلف العلوم والفنون .

هذا الجيل الفارع الممتد إمتداد آفاق العلم ، والمتشعب تشعب فنون الادب شي كثير بل كثير جداً على عمر هذه الفترة الزمنية القصيرة .

في داخل هذه الحقيقة من تميز هذا الجيل تدرك مدى ما يجب ان يكون عليه

الفرد من طاقات حتى يعد من آحاده البارزين ، فكيف الامر بمن يجي الاول بين هؤلاء ، او يكون الثاني بينهم تجي وراءه صفوف من الشخصيات البارزة .
ولقد كان طه حسين الشخصية الاولى بين اعلام جيله ، والا فهو ، في الرعييل الاول من ابناء هذا الجيل .

عبد الرزاق محي الدين